

بسم الله الرحمن الرحيم

## البحر الأحمر عبر التاريخ

الدكتور محمد عبد الرحمن برج



## البحر الأحمر عبر التاريخ

لعله من نافلة القول أن نبداً الحديث بالقول بأن أهمية هذا البحر قديمة قدم التاريخ . ولم يكن يحول بين الشعوب على كلا شاطئيه من الاختلاط والتبادل والإنتاج بل والتأثير الانثروبولوجي والعقائدي والتجاري شيء .

وللبحر الأحمر تسميات عديدة فهناك من يرى أن كلمة Red Sea وردت في كتاب العهد القديم تحت اسم ( بم سوف ) أي بحر سوف وكلمة سوف تعني في العبرية النبات المعروف باسم نبات البردى الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف الأنهار والبحيرات والذي يعرف بالانجليزية باسم Reed وعلى ذلك فإن البعض يرى أن تسمية Red Sea تحريف لكلمة Reed أي بحر البردى .

وسماه فراعنة مصر باسم المحيط العظيم أو الدائرة العظمى . أما مؤرخو الاغريق الرومان وجغرافيوهم فقد أطلقوا على البحر الأحمر اسم البحر الاروتري .

وقص الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الكثير مما شهدته هذا البحر : ( وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » . *الْبَحْرُ الْكَرِيمُ يَكْتَبُ بِخَطِّ الْكَبْرِ وَأَرْضُهُ* .

( سورة يونس الآية - ٩٠ )

وفي شبه الجزيرة التي يحتضنها هذا البحر كلم الله موسى « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » ( سورة القصص الآية - ٥٦ ) وغير ذلك مما ورد في كتابنا العزيز من قصص وأحاديث شتى .

وكان من الطبيعي أن تهتم شعوب هذا البحر بارتياح سواحله والتعرف على مرافقه وموانيه . ففي العصر الاغريقي كان هذا البحر محل اهتمام الاسكندر الأكبر . كان يسأل ونوبات الحمى تعتريه وهو في بابل عن اخبار البعثات الاستكشافية التي أرسلها في محاولة للتعرف على الطريق البحري الذي يربط بين بابل ومصر . ولعله ورث ذلك عن الفرس وملكهم دارا الأول الذي كان يحلم باستكشاف هذا البحر والذي قام بإكمال القناة التي شقها فرعون مصر نخاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين لربط النيل بهذا البحر .

وفي عهد البطالمة أدرك بطليموس الثاني أهمية هذا القناة فأعاد حفرها ، كانت حاجة البطالمة لاستخدام هذا البحر شديدة . فقد كانوا في حاجة إلى سلع الشرق والفيلة الافريقية التي يستطيعون بها مواجهة الفيلة الهندية التي كانت لدى منافسيهم السلوقيين . كان ذلك كله دافعا لاهتمامهم بهذا البحر ومحاولة التعرف على الطرق الصالحة للملاحة فيه وتأمينها والكشف عن الأماكن الصالحة لإنشاء الموانئ والمرافئ على سواحله .



واهتم البطالمة بالتعامل مع عرب اليمن السبأين . كما كان على بطليموس الثاني أن ينظم علاقته بالأنباط ومع دولة لحيان وهي التي ذكرها المؤرخ بلييني باسم لخيني Lianitad . وكان نفوذ اللحيانيين قد انتشر في المنطقة الممتدة غربي النفوذ شمال يثرب إلى ما يحاذي خليج العقبة بل يذكر بعض المؤرخين أن دولتهم قد امتدت حتى شملت نجدا ووصلت إلى الأحساء .

وجدير بالذكر أن بطليموس الثاني كان أول من أقام مستوطنات على الساحل الشرقي لهذا البحر عندما دعى سكان ميلينوس التي كانت جزءاً من امبراطوريتهم وقتذاك لبناء مستوطنة لهم . وبالفعل أقاموا ميناء امبيلوني Ampelone الذي يعتقد المؤرخون أنه كان يقع إلى الشمال من ميناء جده الحالي حتى يسهل الوصول إلى حلفائهم اللحيانيين في العلا .

وحين بدأ نفوذ البطالمة يضعف ونجح منافسوه السلوقيون في هزيمتهم وطردهم من سوريا بدأ اهتمامهم بالساحل الشرقي للبحر الأحمر يضعف ويركزون اهتمامهم على ساحلهم الأفريقي . ونتيجة للانحسار البطلمي اتسع نفوذ الأنباط حول البتراء التي أصبحت مركزاً تجارياً هاماً تأتيها البضائع من الشرق عبر القوافل المتجهة إلى البحر المتوسط ومن الجنوب من سيناء والبحر الأحمر وامتد نفوذ الأنباط فاستولوا على الحجر ( مدائن صالح ) التي تحوي الكثير من آثارهم حتى اليوم .

ومع مجيء الرومان بدأوا في إخضاع القوى القائمة في حوض البحر الأحمر لسلطانهم واحدة تلو الأخرى . واهتموا بالواردات الشرقية خاصة التوابل وازدهرت مدرسة الطب عندهم فبرز أطباء مشهورون يصنعون التذاكر العلاجية التي تقوم على الأعشاب المستوردة من الشرق . وشهد البحر الأحمر خلال هذه الفترة نشاطاً تجارياً كبيراً على حد قول سنيكا المؤرخ الروماني فقال : « إن الرغبة في الكشف قد دفعت الإنسان إلى الترحال إلى كل أرض وجعلته يجوب كل بحر بحثاً عن الكسب » . وشرع الامبراطور اوغسطس يطهر البحر الأحمر من القراصنة الذين استفحل خطرهم بعد تدهور سلطان البطالمة .

ثم اتبع الرومان ذلك على عهد ثاني ولاتهم على مصر ( ايللوس جالوس ) ببناء أسطول في البحر الأحمر . وكان ظهور هذا الأسطول الحربي في مياه هذا البحر في أعقاب فتح مصر بمشاة إعلان قيام سيادة رومانية على البحر الأحمر وعلى الدويلات التجارية الواقعة على جانبيه وإعلان انتهاء الصراع بين هذه القوى من أجل ملء الفراغ الذي تركه البطالمة في ذلك الممر المائي الحيوي . أما بخصوص سياسة الرومان مع الدول الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر فقد تطلبت موقفاً إيجابياً ، إذ كانت هناك قوتان واحدة في شمال شرقي البحر الأحمر وهي دولة الأنباط والأخرى في الجنوب وهم السبئيون الحميريون .



وكانت هاتان الدولتان تعتمدان في وجودهما على التجارة .  
كانت العلاقة بين الأنباط والرومان علاقة طيبة أول الأمر لأن سياسة أوغسطس امبراطور  
الرومان كانت ترمي إلى جعل دولة الأنباط دولة موالية له وعازلة بينهم وبين القوى الأخرى . وقد  
رضي الأنباط بذلك الدور لاعتقادهم أن الرومان سوف يكافئونهم على ذلك بأن يطلقوا يدهم في  
تجارة البحر الأحمر وجعلهم ينفردون بها . لكن الرومان عندما وصلوا إلى مياه هذا البحر بدأوا  
يغيرون فكرتهم ومان أن ظهر الأسطول الحربي الروماني في مياه البحر الأحمر حتى بدأ الرومان  
يقلمون أظافر حلفائهم الأنباط حتى لا يتحولوا إلى خطر يهددهم ويهدد مصالحهم في هذه المنطقة .  
وبالتالي بدأت دولة الأنباط تضعف إلى أن رأى الامبراطور تراجان في عام ١٠٦ م إنهاء وجود دولة  
مستقلة للأنباط . وبضم مملكة الأنباط إلى الامبراطورية الرومانية تضاعف شأن البطراء العاصمة  
التجارية القديمة ، وانتقلت الأهمية إلى مدن أخرى مثل فيلادلفيا ( عمان ) .

وأنتهى بذلك سفر طويل من علاقة الرومان بالأنباط لتنفرد روما بالسيطرة على البحر الأحمر .  
أما عن السبئين الحميريين فقد عمل أوغسطس على كسر احتكارهم للتجارة الشرقية . ومن  
أجل ذلك عهد إلى ثاني ولاته على مصر أن يقوم بحملة على اليمن . ويذكر المؤرخون أن الحملة التي  
سارت من البحر الأحمر إلى ماريابا ( مأرب ) وصلت عاصمة السبائيين ومقر ملكهم ولكنها فشلت  
في الاستيلاء عليها بسبب نفاذ المؤن والماء فاضطر الرومان إلى رفع الحصار عنها والانسحاب إلى  
نجران .

وإذا كان الرومان قد فشلوا في الاستيلاء على اليمن فإن حملتهم حققت نجاحا كبيرا إذ مزقت  
الحجب التي كانت تحيط بجنوب شبه الجزيرة . وبدأ المؤرخون والجغرافيون يكتبون عن هذه  
المنطقة . أما من الناحية الاقتصادية فقد كانت هذه الحملة بداية عهد جديد للملاحة في البحر الأحمر  
إذ شرع أوغسطس يحقق ما كان يحلم به الاسكندر الأكبر من الدوران حول شبه الجزيرة العربية من  
الخليج حتى البحر الأحمر .

غير أن الضعف السياسي والاقتصادي الذي سرى بعد ذلك في أوصال الامبراطورية الرومانية  
أفقداهم الاهتمام بالبحر الأحمر وشغلت بمشاغلها الداخلية . وبدأت قوى جديدة تظهر في منطقة هذا  
البحر ويزداد خطرهما وهي دولة اكسوم ( الحبشة ) التي تطلعت للاستيلاء على اليمن لإحكام القبضة  
على هذا البحر . وفي الشرق برزت الدولة الساسانية في فارس التي أحيت القومية الفارسية التي  
اندثرت منذ أيام الاسكندر .



كان اليمن قد شهد تبشيرا يهوديا ونرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحية في نجران وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا ذلك في قصة أصحاب الأخدود .  
وتعمل الحبشة بإيعاز من بيزنطة على حماية المسيحيين الذين يعيشون في جنوب الجزيرة العربية من ظلم الملك الحميري اليهودي ذا نواس وترسل جيوشها وتهزم هذا الملك ويصبح أبرهة بعد ذلك ملكا على اليمن وهو الذي حاول هدم الكعبة في العام الذي شهد مولد سيدنا رسول الله ﷺ .  
ثم كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة عبر البحر الأحمر إلى افريقية . ويذكر بعض المؤرخين أن الحبشة كانت أقرب بلاد مسيحية يحكمها ملك مسيحي إلى الجزيرة العربية ، والسفر إليها أهون أمرا وأسلم عاقبة إذ لا يزيد عن كونه عبورا للبحر الأحمر وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا وجنوبا من خلال القبائل المعادية للإسلام .

٧٧

لقد كانت هذه الهجرة المبكرة عبر البحر الأحمر إلى افريقية الشرقية بداية لانتشار الإسلام في القارة الافريقية، وربما كان هذا البحر المعبر السلمي الكبير الذي عبرت به الدعوة دونما حاجة إلى الجيوش والأساطيل .

وأخذت الهجرات المستمرة لبعض القبائل العربية عبر البحر الأحمر إلى افريقية تمضي قدما . وكان للظروف السياسية التي مرت بالدول الإسلامية والصراعات الحزبية والطائفية الدافع الكبير وراء ذلك .

ويذكر السير توماس ارنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام ان من الكتب العربية التي تعرضت لانتشار الإسلام في شرقي افريقيا كتابا وجده البرتغاليون في مدينة كلوا حين اجتاحتها فرنسيسكو دالميرا سنة ١٥٠٥ يتحدث ذلك المصدر عن أن جماعة من العرب جاءوا إلى افريقية يتبعون زيدا من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام .

ويؤكد هذا النص أن مصرع زيد بن علي زين العابدين جعل هؤلاء الزيديين يخشون على أنفسهم من عداة الأمويين فعبروا البحر الأحمر واتجهوا نحو الإقليم المعروف بالصومال حاليا في شرقي افريقية وأسسوا مدينة مقديشو واختلطوا بالافارقة وأسهموا بدور كبير في نشر الدين الإسلامي .  
ومما يدل على سرعة انتشار الإسلام بين شعوب افريقية الشرقية عبر البحر الأحمر ما يذكره بن حوقل الجغرافي الرحالة العربي المشهور من أن أهالي زيلع كانوا يدينون بالمسيحية في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ولما زار أبو الفدا نفس المنطقة وجدهم جميعا مسلمين .

ويؤكد أبو الفدا ( المختصر في أخبار البشر الجزء الثاني ) على الدور الهام الذي قام به التجار المسلمون عبر البحر الأحمر في نشر العقيدة الإسلامية .



ولم يقتصر نشاط المسلمين على مجرد نشر الدعوة الإسلامية في مختلف مناطق شرقي افريقية بل تبع ذلك تأسيس إمارات وممالك إسلامية مثل إمارة شو الإسلامية نسبة إلى إقليم شوا المشهور في هضبة الحبشة وكان سلاطين هذه الإمارة من بني مخزوم التي ينتمي إليها القائد الإسلامي العظيم خالد بن الوليد وإمارة إيفات الإسلامية وهي الإمارة التي أنهت إمارة شوا وكانت عاصمتها زيلع . وأضحى البحر الأحمر شرياناً هاماً للمواصلات واحتل مركزاً مرموقاً كطريق هام للحجيج .

فمن طريق خليج العقبة يأتي حجاج الشام وعن طريق خليج القلزم يأتي حجاج دلتا مصر وشمال افريقية والمغرب الأقصى .. ومن عيذاب يأتي حجاج صعيد مصر وبعض حجاج افريقية .

ولقد اهتمت الدول الإسلامية المختلفة على طول تاريخها بهذا البحر ، ففي عهد الدولة الفاطمية نجح الخلفاء الفاطميون في السيطرة على تجارة البحر الأحمر وجلب تجارة الشرق الأقصى إليه .

أما في العصر الأيوبي فقد احتل هذا البحر مركزاً مرموقاً من الناحيتين السياسية والحربية . كما أنه لعب دوراً لا يستهان به في الأحداث التي وقعت بين صلاح الدين وخلفائه وبين الصليبيين . كما أنه أصبح الطريق الوحيد للحجيج بالنسبة لبلاد الشام ومصر وشمال افريقية والأندلس ذلك أن الطريق البري عبر شبه جزيرة سيناء أضحى غير مأمون الجانب .

وينبغي الإشارة هنا أيها الاخوة إلى ذلك المشروع الخطير الذي حاول فيه أحد أمراء الصليبيين في عصر صلاح الدين وهو رينو دي شاتيون ( ارناط في المصادر العربية صاحب حصن الكرك شرقي البحر الميت ) القضاء على السيادة الإسلامية في البحر الأحمر وطعن الإسلام في قلبه بغزو الحرمين الشريفين .

غير أن العالم الإسلامي كان قد توحدت أركانه في وحدة سياسية قوية على رأسها صلاح الدين الأيوبي ونزلت السفن الإسلامية البحر وأخذت في مطاردة الصليبيين الذين أخذوا على غرة وكانوا على مسافة يوم واحد من المدينة المنورة وأسروهم جميعاً وأمر صلاح الدين بقتل أولئك الأسرى جميعاً ليكونوا عبرة لمن تحدثهم نفوسهم بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله .

وظل ميناء جدة طيلة العصر الأيوبي مركزاً هاماً من مراكز تجارة الشرق . كما كانت عدن مركزاً هاماً من مراكز تجارة الكارم . ولعب ميناء عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة دوراً هاماً هو الآخر في تجارة البحر الأحمر في ذلك العصر . كان التجار يفضلون الرسو عند هذا الميناء لعمق مياهه وخلوه من الشعاب المرجانية التي تتعرض لها الملاحة في البحر الأحمر .

وشهد بن جبير في رحلته إلى الأراضي الحجازية سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) بأن عيذاب من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها .



وفي عصر المماليك ظل البحر الأحمر أو بحر القلزم بحراً مقدساً يحرم على غير المسلمين دخوله حماية للأماكن المقدسة ببلاد الحجاز . وأخذت دولة المماليك تجني الأرباح الطائلة من مرور التجارة به إليها عبر مصر إلى أوروبا . وأخذ سلاطين المماليك بإنشاء الوكالات التجارية على شاطئ هذا البحر . وبرزت جدة كمحطة للبضائع الشرقية . كانت السفن القادمة من الصين والهند تفرغ حمولتها بهذا الميناء حيث تقرر الرسوم الجمركية المستحقة عليها ثم تنتقل إلى مكة بطريق البر أو إلى ميناء الطور . وفي الداخل كانت مكة سوقاً عالمية يجتمع به في موسم الحج تجار العالم الإسلامي ومعهم البضائع من الأقطار المختلفة .

إلا أن تدهور البناء الداخلي لسلطنة المماليك الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها

التجارية بعالم البحر الأحمر ، ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة للأموال جعلتهم يشتطون في تقدير قيمة الضرائب وكان ذلك الدافع الاقتصادي بالإضافة إلى الدوافع الدينية والسياسية من وراء حركة الكشف الجغرافية التي قادها البرتغاليون ونجاحهم في الوصول إلى رأس الرجاء الصالح والصراع بينهم وبين القوى الإسلامية في الجنوب العربي والهند .

وحاول المماليك التصدي لهذا الخطر الصليبي فكانت حملتهم إلى الهند بقيادة حسين الكردي . وبعد انتصار المماليك عند شيول سنة ١٥٠٨ م أسرع البرتغاليون بالخروج بقوات كبيرة لملاقاة هذا القائد المملوكي الذي لم يستمع إلى نصيحة حاكم ديو بالانتظار عندها حمية لظهر سفنه وإصراره على الخروج إلى عرض المحيط لملاقاة البرتغاليين . وكانت هزيمة الأسطول المملوكي عند ديو سنة ١٥٠٩ م .

وأخذ السلطان المملوكي يد العدة لحملة ثانية وانتظر الأخشاب التي طلبها من السلطان العثماني بايزيد الثاني ولكن فرمان القديس يوحنا استولوا عليها وهي في الطريق إلى مصر . كانت القوى الإسلامية مبعثرة المجهود فهناك الصفديون في فارس والعثمانيون في آسيا الصغرى والمماليك في مصر والشام لا وحدة بينهم ولا ترابط ولا تنسيق لمقاومة خطر صليبي غاز جاءت جيوشه إلى عالمنا الإسلامي غازية مستعمرة .

وفرض البرتغاليون الحصار حول مدينة عدن لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها . وينبغي أن يشيد الباحث بجهد أهل عدن البطولي في مقاومة هذا الغزو البرتغالي . وترك البرتغاليون عدن إلى باب المندب ومنه إلى البحر الأحمر فاستولوا على جزيرة قمران في إبريل ١٥١٣ م .



وأسرع السلطان الغوري بجهز حملة ثانية ولكنها بدلا من ان تتفرغ إلى هدفها الرئيسي اجهت إلى الاستيلاء على بعض المناطق على ساحل اليمن ولم يمض حسين الكردي بحملته أبعد من ذلك بل انسحب إلى جدة .

هذا في الوقت الذي أرسل فيه البرتغاليون حملة كبيرة بقيادة لوبو سكويرا نائب الملك في الهند . وكانت أغراضها هذه المرة تتكون من شقين : الأول منها مهاجمة جدة والاستيلاء عليها ، والثاني إنزال أول بعثة دبلوماسية إلى السواحل الحبشية لإنشاء علاقات دبلوماسية مع الحبشة والتكاتف معها في القضاء على النفوذ الإسلامي في مياه البحر الأحمر .

ولم ينجح البرتغاليون في اختراق البحر الأحمر بعد أن عاقبتهم الرياح المعاكسة عن اختراق أسطولهم له ، كما كان التحالف البرتغالي الحبشي يحمل عوامل فشله بسبب اختلاف وجهتي نظر المتحالفين واختلاف مذهبهما الديني . فالأحباش يعتقدون الديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي ، بينما يعتقد البرتغاليون المذهب المسيحي الكاثوليكي . ومن ناحية أخرى كان الأحباش يرغبون أن يساعدتهم البرتغاليون على تطوير بلادهم حتى يستطيعوا الوقوف أمام الإمارات الحبشية المسلمة المجاورة لهم . كما كانوا يريدون أن تتعاون جميع الدول المسيحية الأوروبية مع البرتغال بإرسال قواتها إلى البحر الأحمر وتستولي كل دولة من هذه الدول على أحد المواقع الهامة عليه . فتحتل اسبانيا زيلع وتحتل فرنسا سواكن . بينما تحتل البرتغال مصوع . وفي نفس الوقت تساعد القوات المتحالفة الحبشة في الزحف على البلاد الإسلامية والاستيلاء على جدة ومكة وغيرها من المدن الإسلامية الهامة ، وكان معنى ذلك القضاء على احتكار البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح . بينما كان البرتغاليون يهدفون من وراء ذلك التحالف إلى اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم واستغلال ثرواتها وتحويلها إلى المذهب الكاثوليكي .

وكان هناك عامل آخر أثر على موقف الأحباش وهو مجيء الأتراك العثمانيين إلى الشرق الإسلامي . فقد خشي ملك الحبشة أن يؤدي تحالفه مع البرتغاليين إلى مهاجمة القوات العثمانية لبلاده والتدخل في تعيين رئيس أساقفة الحبشة التي كانت كنيسة تتبع كنيسة الاسكندرية وكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين رئيس أساقفة الحبشة .

وأوكل إلى العثمانيين مهمة الحفاظ على البحر الأحمر كبخيرة إسلامية . وبدأت أولى خطواتهم في هذا السبيل بمحاولة إخضاع اليمن لنفوذهم تقديرا منهم لأهمية اليمن الاستراتيجية في صراعهم ضد البرتغاليين . لكن حملة سليمان الخادم أساءت إلى سمعة العثمانيين بعد غدره بحاكم عدن الذي أعطاه الأمان ثم كان عجزه عن الوصول إلى ديو واضطراره للعودة إلى ميناء الشحر واستيلائه على حضرموت وإبحاره إلى ميناء المخا استعدادا لإخضاع القوى المملوكية التي كانت في زيد .



وفي سنة ١٥٥٧ م تمكن العثمانيون من الاستيلاء على سواكن ومصوع وفرض العثمانيون تقليدا يقضي بمنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر لحماية للأماكن المقدسة .

ومنذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي بدأت قوى دولية أخرى تدخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية في هذا البحر .

أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية بعثاتها إلى هذا البحر كما أرسلت هولندا هي الأخرى رجالها وفي عهد الدولة القاسمية الزيدية وفي غيبة النفوذ العثماني في اليمن بدأ التطلع الفرنسي إلى المشاركة في النشاط التجاري في البحر الأحمر . وكانت بعثات أخرى مثل بعثة نيبور بعد ذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي .

وفي هذه الفترة أي فترة النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي بعد الانتصار البريطاني على الفرنسيين في الهند قوى الصراع الانجليزي الفرنسي في منطقة البحر الأحمر\* . صار الانجليز بعد انتصارهم على فرنسا أصحاب النفوذ في المحيط الهندي والبحار الشرقية وطريق رأس الرجاء الصالح .

أما منافسهم الفرنسيون فنراهم يسعون لدى الأمراء المماليك في مصر للحصول على تصريح بتجارة منتظمة بين الهند والعريش . وقيل إن الفرنسيين كانوا يفكرون في أن يطلبوا ترخيصا بمرور جيش فرنسي من مصر إلى الهند لمساعدة تبو صاحب سلطان ميسور الثائر على الحكم البريطاني وتبع ذلك حملة بونايرت على مصر .

وفي جميع المشروعات التي قدمت إلى الحكومة الفرنسية لفتح مصر تظهر أهمية البحر الأحمر كطريق عام للتجارة الشرقية يستطيع أن ينافس طريق الرأس الذي تحتكره بريطانيا وكطريق تستطيع فرنسا أن تتقدم منه إلى الهند فتتال من الحكم البريطاني . وكان الفرنسيون يحلمون أنه حين يصبح البحر الأحمر تحت سيطرتهم أن يسيطروا نفوذهم على الشرق .

وجاء بونايرت ورغم مشاغله العديدة وقصر مدة حملته أوفد الحملة التي كان على رأسها المهندس لوير لدراسة مشروع شق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر . ووجد بونايرت على كثرة مشاغله من وقته متسعا ليصحب اللجنة في بعض جولاتها .

غير أن تقديرات لوير وصلت إلى تأييد فكرة خاطئة وهي أن البحر الأحمر يعلو عليه البحر الأبيض المتوسط بنحو تسعة أمتار ( ٢٢ر٥ قدما ) لهذا خيف إذا حفرّت القناة أن تغرق مياه البحر الأحمر مياه الدلتا .



ولقد كان طبيعيا ان يحتل البحر الاحمر جانبا كبيرا من اهتمام الفرنسيين وخاصة بعد ان فرض الانجليز حصارا من جهة البحر المتوسط ليحولوا بينهم وبين الاتصال بالوطن الأم . ولم يكن أمامهم لمحاولة الانطلاق من مصر سوى طريقين طريق الشام في اتجاه القسطنطينية وطريق البحر الأحمر في اتجاه الهند .

وإذا كان الجيش الفرنسي الزاحف إلى بلاد الشام قد استعصى عليه فتح عكا ثم ارتد إلى مصر فكذلك كان طريق البحر الأحمر ، أرسل بونايرت عدة رسائل إلى بعض أمراء العرب في الحجاز ومسقط وغيرها يمهّد بذلك كما قال في رسائله إلى إرسال حملة فرنسية كبيرة لغزو الهند .

لكن هذا كله لم يفلح إلا في إثارة البحرية الانجليزية الهندية بالبحار الشرقية وسعيها إلى الاستيلاء على المنافذ الجنوبية للبحر الأحمر لقفل الطريق أمام أي محاولة فرنسية . كما أن الانجليز سعوا إلى عقد معاهدة صداقة مع سلطان لحج ليسبقوا الفرنسيين إلى بسط نفوذهم في هذه المناطق العربية .  
X أما الانجليز فلم يحفلوا كثيرا بالأثر الذي قد يكون لوجود الفرنسيين بمصر على تجارة الشرق طالما بقي في أيديهم طريق الرأس وتحوّلت متاجرهم القليلة التي كانت تتردد من وقت إلى آخر على السويس إلى الطريق البري عبر سوريا وأرض الجزيرة ثم الخليج العربي والهند .

ولكن الانجليز — مع هذا — أدركوا الخطر من محاولة الفرنسيين الاتصال بالهند فنراهم يعملون ليحولوا دون وصول قوة حربية فرنسية إلى الهند عن طريق البحر الأحمر باحتلال بريم وعدن عند مدخل البحر الأحمر كما أنهم يرسلون من الهند إلى البحر الأحمر والقصير قوة برية وبحرية للاشتراك مع القوات البريطانية التي نزلت من البحر المتوسط لإخراج الفرنسيين من مصر .

وعلى الرغم من أن الحملة التي جاءت عن طريق البحر الأحمر لم تشترك فعلا في القتال ، إلا أن إرسالها من الهند عن هذا الطريق أمر له دلالة إذ يظهر الارتباط الذي بدأ الانجليز يولونه لأهمية الربط بينهم وبين الممتلكات البريطانية في الشرق عن طريق البحر الأحمر . وزاد شق قناة السويس من هذا الأمر أهمية .

والمعروف أن بريطانيا عارضت مشروع قناة السويس لأنه كان من فكر وإحياء فردينان دي لسبس الفرنسي . وحرّضت السلطان العثماني على عدم الموافقة على المشروع وعدم التصديق على الامتياز الممنوح لدى لسبس حتى إذا مضى العمل في شق القناة برغم هذه العقبات وأصبحت القناة تربط البحرين الأحمر والمتوسط سعت بريطانيا لوضع يدها عليه سنة ١٨٨٢ م .

وباحتلال بريطانيا لمصر وسيطرتها على عدن من قبل وجزيرة بريم صار لها التحكم المطلق في البحر الأحمر شماله وجنوبه .



و حين شرعت الحكومة الإيطالية في وضع خطة واسعة النطاق للتوسع الاستعماري من مصوع على ساحل البحر الأحمر حتى تصل بممتلكاتها الأفريقية إلى ساحل البحر المتوسط ومهدت بذلك بحملتها على الحبشة سنة ١٨٨٩ م لم تمنع بريطانيا في ذلك .

في ظل ذلك نستطيع أن نفسر قبول الانجليز سنة ١٨٨٩ م إعلان الإيطاليين حمايتهم على الحبشة التي تضمنتها معاهدة أوتشالي . وأعطى سولسبري للإيطاليين كل مساعدة في حصر البحر الأحمر لمنع الأسلحة أن تصل إلى الأحباش .

ولكن حين بدأت مطامع الإيطاليين تتجه إلى السودان فإن السياسة الانجليزية كان لها موقف مغاير . ذلك أن المسألة أصبحت تتعلق ببريطانيا كإمبراطورية وأصرت على الحيلولة دون توغل إيطاليا في السودان معلنة أنه أرض مصرية وإن اضطرت مصر إلى الجلاء عنه بصفة مؤقتة . وفشلت المفاوضات بين الحكومتين الإيطالية والانجليزية بسبب رغبة الإيطاليين في المضي في فتوحاتهم في السودان الشرقي .

وكان الإيطاليون يعززون هذا الفشل إلى حقد لورد كرومر عليهم . ولكن المتبع للصحف الانجليزية في ذلك الوقت يجد حملة عنيفة على إيطاليا لدرجة أن بريطانيا هددت بإلغاء الاتفاق الذي وقعته مع إيطاليا والنمسا والمجر سنة ١٨٨٧ م .

ولم يكن الصراع بين الدول الأوروبية قاصرا على ساحل البحر الأحمر الأفريقي فحسب بل امتد إلى ساحله الآسيوي . لقد كان الساحل الشرقي لهذا البحر خاضعا للدولة العثمانية فيما عدا الركن الجنوبي الغربي حيث توجد مستعمرة عدن . ولكن السيادة العثمانية على هذا الساحل لم تكن آمنة مطمئنة فالإدريسي في منطقة عسير يخوض حربا مع الإمام يحيى ضد الوجود العثماني ولم تتوقف تلك الحرب إلا بعقد الإمام يحيى صلح دعان مع الأتراك سنة ١٩١١ م .

وكانت الحرب العالمية الأولى وصار من الأمور الحيوية لبريطانيا أن تحمي تجارتها في أثناء مرورها في البحرين المتوسط والأحمر .. ذلك أن الاعتداء على هذه التجارة يحرم مصانعها من المواد الخام الواردة من الشرق كما يحرمها من الحبوب وغيرها الواردة لها من مستعمراتها في الهند وأستراليا . وأمام ضرب الغواصات الألمانية للسفن البريطانية في البحر المتوسط اتبعت بريطانيا نظام القوافل التجارية محاولة بذلك أن تؤمن مواصلاتها فيه . ورأت أنه لا بد من حماية سفنها من جهة الجنوب عند البحر الأحمر كما فرضت رقابة صارمة على مدخل هذا البحر من جهته الشمالية وفي قناة السويس .. وبرغم أن اتفاقية القسطنطينية التي أبرمت سنة ١٨٨٨ م والتي تنص على حرية الملاحة لجميع سفن العالم دون تمييز أو استثناء فقد بات محرما على السفن المعادية لبريطانيا استخدام القناة .



وكان من مخططات العثمانيين مهاجمة عدن وجزيرة بريم في نفس وقت مهاجمة قناة السويس من ناحية الشرق أي مهاجمة البحر الأحمر من مدخله الشمالي والجنوبي في وقت واحد. وكان هذا التصور من قبل العثمانيين خاطئاً لأن الدولة العثمانية بقواتها المحدودة في شبه الجزيرة لا تستطيع زحزحة أقدام البريطانيين الحصينة في عدن عن طريق البر . <sup>هـ</sup> أما عن الألمان حلفاء تركيل فكانت خططهم التي هدفوا إليها <sup>هـ</sup> اتخاذ البحر الأحمر معبراً لمستعمراتهم في شرق افريقية . ولكن تفوق البحرية الانجليزية في البحر الأحمر لم يمكن الألمان من ذلك .

كذلك كانت معاهدة الانجليز مع الادريسي في ٣٠ ابريل ١٩١٥ م تنص على شن حرب ضد الأتراك وفي استخدام الانجليز لجزر فرسان في الأعمال الحربية في مقابل تعهد بريطانيا بحماية الادريسي ومساعدته ماليا وعسكريا والسماح لسفنه بحرية الملاحة في البحر الأحمر . وإلى جانب ذلك لم تقف بريطانيا موقف الدفاع فحسب بل تحركت قواتها في جهتي البحر الأحمر شماله وجنوبه . بالنسبة لشماله قامت بريطانيا بتعزيز حاميتها في مصر وأعلنت الحماية عليها وفرضت الأحكام العرفية وقامت بخلع الخديوي عباس حلمي لنزعه التركية . وبعد نجاحها في صد الهجوم التركي على قناة السويس خرجت قواتها تطارد القوات التركية بعد ذلك بقيادة اللبي . أما بالنسبة للميدان الجنوبي فقد عملت على تدعيم قواتها البرية والبحرية في منطقة عدن وفي جزيرة بريم .

وهكذا اظهرت سياسة بريطانيا الحربية في البحر الأحمر مدى الترابط بين الجبهتين العسكرية في مصر التي تقع على الباب الشمالي لهذا البحر والجبهة الجنوبية في عدن التي تتحكم في مدخله الجنوبي . فعندما هاجم اللبي الأتراك في فلسطين قام الانجليز في نفس الوقت بضرب ميناء الحديدة . وبدأت بعد الحرب العالمية الأولى دراسات رجال الاستراتيجية والسياسة في بريطانيا حول أهمية طريق البحر الأحمر . وكان من رأي بعض رجالها المختصين بالاستراتيجية أن على انجلترا أن تتخلى عن طريق السويس والبحر الأحمر وتتبع طريق الرأس ودعم هذا النفر رأيهم بالقول أن طريق البحر المتوسط والسويس وطريق البحر الأحمر لا فائدة منه وقت الحرب نظراً لأن وجود الغواصات والتطور الذي صار منتظراً بالنسبة للطيران جعل المسافة بين جبل طارق وإلى بور سعيد المقدرة بـ ١٩٠٠ ميل بخلاف قناة السويس والبحر الأحمر المقدرة طولها بأكثر من ١٢٠٠ ميل في وضع صعب من ناحية الدفاع .

ودعم أصحاب هذه النظرية رأيهم بالقول أنه في حالة الحرب العالمية الأولى عندما كان العدو يمتلك قواعد قليلة أو يكاد يكون بلا قواعد كانت الغواصات الألمانية تباشر نشاطها أكثر من أي وقت .

لكن بريطانيا لم تأخذ برأي هذا النفر من رجال الاستراتيجية فقد كان هناك من الانجليز من يرى أن تبقى السيطرة على طريق البحر الأحمر خاصة وأن طريق الرأس يطيل المسافة بنسبة ٨٠٪ ما بين لندن والخليج العربي ونسبة ١٠٪ ما بين لندن وأستراليا إذا ما قيس بطريق الرأس .

وأمام تطور الوسائل الحربية وحين أصبحت قوات المشاة قوات محمولة فضل خبراء الاستراتيجية القواعد العسكرية ، وكان ذلك أحد الأسباب التي دفعت الانجليز إلى إبرام عدد من المعاهدات العسكرية التي تضمن لهم قواعد في مناطق هامة وحساسة من هذا البحر في مقدمتها قاعدتهم في السويس ١٩٣٦ م .

وجاءت الحرب العالمية الثانية بقوى جديدة جاءت بالتفوق الأمريكي ليقود المعسكر الغربي وبالاتحاد السوفيتي ليقود المعسكر الشرقي .

إن لأمريكا مصالحها الحيوية في البحر الأحمر كمعبر للتجارة العالمية عموما ومعبر للبترول وحلقة هامة في انسياب قواتها البحرية على المستوى العالمي وتواجدها حيث تستدعي الأحداث داخل هذا البحر أو في أي مكان آخر عن طريقه لتسند الأصدقاء وتردع الأعداء وإن للاتحاد السوفيتي هو الآخر مصالحه الحيوية في هذا البحر كمعبر للتجارة ولنقل قواته .

وهكذا تزداد أهمية هذا البحر يوما بعد آخر ويلقى ذلك بمسؤولية كبرى على الدول المطلة عليه أن تتعاون فيما بينها وتنسق استغلال ثرواته بأقصى الجهد والإمكانات والله الموفق ،،،